



دمشق

في شهر مصطفى عكرمة



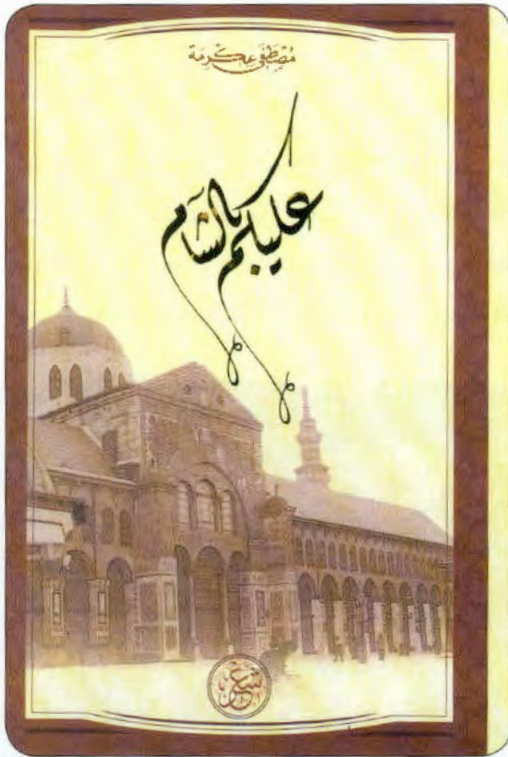
عبد اللطيف الأرنؤوط - سورية

يرسخ الشاعر مصطفى عكرمة تقليد ادرج عليه شعراء العربية منذ القدم تناولته الدراسات الأدبية تحت عناوين مختلفة، منها رثاء المدن الزائلة، والاتعاظ بما حل بها من نكبات. أو من قبل مرحلة الاستقرار المدني، فقد كان الشاعر العربي شديد الارتباط بمضارب قبيلته وتنقلها. وتحول هذا الولاء بعد الفتوح إلى موطن الاستقرار في المدن، غير أن الشاعر ظل يحن إلى ماضي آبائه في البادية، ويؤثر الحياة في حضن الطبيعة حيث البراءة والنقاء والقيم العربية الأصيلة.





مصطفى عكرمة



الإنسانية التي تشعر الشاعر بأنه بين ذويه، وتوفر له فضاء من الراحة، ومنهم من خص أهل دمشق باللطف والكرم وحسن المعاشرة. وقد نجد في الشعر العربي القديم من يسبغ هذه المحامد على مدن أخرى

لقد تعددت العواصم ونشأت مدن جديدة في كل أرجاء العالم الإسلامي بعد الفتوح، ودرج الشعراء من أبناء هذه المدن على تخليدها، إذ نجد لكل مدينة أو عاصمة من يمدحها ويحن إليها ويؤثرها على سواها، أو يبكي على سقوطها واندثارها، أو يعدد النوائب التي تحل بها، كما نجد لدى الشاعر ابن الرومي في وصف نكبة البصرة بعد ثورة الزنج، أو رثاء «أبي البقاء الرندي» لمدن الأندلس بعد سقوطها، وقد تغدو هذه المدن والعواصم رمزا يجسد قطرا معيناً ويمثله، فقاهرة المعز تجسد تاريخ مصر العريق في ظل الحضارة العربية الإسلامية، وكذلك بغداد الرشيد، ودمشق بني أمية رمز لعروبة بلاد الشام.

على أن تمجيد الشعراء لهذه العواصم والمدن، لا يصح أن ينظر إليه في إطار التمايز والتفاضل بين عاصمة أو مدينة عربية وأخرى.

وهي نظرة إقليمية ضيقة تغلب التجزئة والانقسام على الوحدة العربية والإسلامية الشاملة، إذ لا يمكن للجزء أن يتسامى على الأجزاء الأخرى، ولا أن تفضل مدينة على مدينة أخرى، فالعلاقة بين المدن العربية كلها ليست علاقة تضاد أو تناحر مهما اختلفت السياسات أو المصالح، وليس لها أن تنسب لنفسها التميز مهما خصها الله من محاسن، ووهب أهلها من قيم.

من هذا المنطلق يجب أن نقرأ ما خص به الشعراء مدينة دمشق من إطراء وتمجيد عبر القرون المتطاولة، ومنهم من كان من أبنائها أو أقام فيها زمناً فأمسى أحد أبنائها، ومنهم من فتنه طبيعتها الساحرة وغوطتها الفناء أو عراقتها التاريخية، ومنهم من غادرها راغماً منفياً، فحن إلى الأهل والعشير، فليست جماليات المكان وحدها هي التي تدفع الشعراء للحنين إلى المدن، وإنما الرابطة



واحتفظت بأصالتها وثقافتها بعد انتقال الخلافة إلى بغداد، وهي مدينة دافئة سرعان ما يألفها الغريب الوافد، ويجد في عالمها الذي يفتح صدره لكل الطبقات رحابة إنسانية عجيبة، حتى لتنازعه نفسه بالبقاء فيها، وما أكثر الوافدين الذين تحولوا عن أوطانهم بعد زيارتهم لها، واتخذوها دار إقامة! إضافة إلى طبيعتها الفاتنة التي تجمع بين جمال البادية وشمسها الدافئة، وحضارة الماء الذي يمد غوطتها بالحياة والجمال، فتحيط بأحيائها إحاطة السوار بالمعصم، فلا عجب أن كل من يرى الشام يعشقها..

* * *

وتأتي المجموعة الشعرية بعنوان (عليكم بالشام) للشاعر مصطفى عكرمة امتدادا لفيض من القصائد التي مجدت الشام في القديم والحديث. والشاعر مصطفى عكرمة.. له إسهام بارز في الساحة الأدبية، وهو شاعر متدفق غزير القريحة، موفور النشاط.. أصدر عدة مجموعات شعرية، تجمع

بحسب علاقة الشاعر بهذه المدن ومدى ارتباطه بها. ومنهم من أحس أنه ينتسب إلى دار العروبة والإسلام، لا إلى قطر أو عاصمة معينة، فقلبه المرتحل دوما بينها موزع بين أمصارها.. قال الشاعر أبو تمام:

بالشام أهلي، وبغداد الهوى، وأنا

بالرقمتين، وبالفسطاط جيران

وما أظن النوى يوما تحوّلني

حتى تبلغني أقصى خراسان

ما يلفت النظر حول صلة الشاعر بالمكان اهتمام بعض الشعراء المعاصرين بجمع ما جاءت به قرائنهم حول المدن في مجموعات خاصة، تعزيزا لوحدة هذه المدن وانتسابها إلى إطارها الكلي العربي والإسلامي.

ولو استعرضنا الشعر الذي قيل في دمشق قديما وحديثا لما اتسعت له الصفحات. فقد نالت هذه المدينة الخطوة لدى الشعراء بعد الإسلام، فقد كانت في مرحلة المد العربي دارا للخلافة الأموية، وحافظت عبر تاريخها الطويل على هويتها العربية الإسلامية،



بين الشعر والمسرحية الشعرية والقصة الشعرية، وطبع بعض آثاره أكثر من مرة. وقد حصد عددا من الجوائز التشجيعية.

جاء إلى دمشق فتى زائرا، فأسرته ضيفا، واستقر فيها مع أسرته حتى ليعدها موطن انتماؤه، وتراه مدفوعا بحنين ما فتئ يصوره في شعره إلى حد الافتنان.. يقول في مقدمة مجموعته:

(الحمد لله الذي أكرمني بأن جعل سكني في الشام، فكانت أكبر نعمة منه عليّ بعد الإيمان به)، وهو يناجيها بلسان العاشق الولهان:

(أيتها الحبيبة الخالدة الرائعة، إن حبك مثل حسنك يبقى فوق كل بيان، فاعذري بياني، وإني لأظنك تعذرين لما من أمري تعلمين).

ويستمد الشاعر «عكرمة» عنوان مجموعته «عليكم بالشام»^(١) من الحديث النبوي الشريف^(٢) ورأى من جمال دمشق وسحر طبيعتها وخير أهلها ما يفي بوعد الرسول الكريم ﷺ فتظم الحديث شعرا لطيفا، وحافظ على نصه ومضمونه.. فقال:

«عليكم بالشام» فتلک أرض

بها الرحمن یسکن من أحبا

أفاض بها من البرکات فیضا

به تزدد عبر الدهر خصبا

وقد أجرى بها بردي فراتا

فکان لحسنها روحا وقلبا

وهذا التناص بين الحديث وشعر الشاعر يعكس حقيقتين تتصلان بشعره: أولهما احتداؤه الأساليب الشعرية التراثية، وثانيهما قدرته الإبداعية على إحياء التراث والاعتراف به نموذجا يحتذيه في النظم، ويسترجه ليظل ماثلا في ذاكرة الأجيال..

تضم المجموعة اثني عشر نصا شعريا تتفاوت في مضامينها وطولها، وقد رتبها الشاعر ترتيبا زمنيا يسمح بدراسة تطور تجربته الشعرية، وارتبط بعض هذه القصائد بمناسبات اجتماعية ودينية، فأبيات مقطوعته (أيامنا) تعد من أجمل ما يمكن أن يعبر عنه شاعر في وصف براءة المحبين وغفتهم في لقاءاتهم في قلب الطبيعة النقية على ضفة «بردي»، يقول فيها:

لا الراح تسکرنا ولا الأقداح

سکرت بلمسة راحتینا الراح

ملأى تُدار ولا نحس بخمرها

یأبى الهوى أن تأثم الأرواح

للذکریات وسحرها أيامنا

فرفیقها عن سرنا إفصاح

تغفو على أجفاننا فتن الهوى

وعلى مناهل ثغرنا ترتاح

فلنا جناح رفّ في قلب الدجى

وعلى ارتعاش الفجر رفّ جناح

تتراحم الآمال تخطب ودنا

وتفار من أفراننا الأفراح





نلهو.. فيدنو النجم يلهو بيننا

أثامنا ملهى له، ومراخ

ونجد أنا فالمنى في كفا

كأس، ومن بردى تدار الراخ

هذا شعر صادق، تتناغم فيه براءة المحبين، وصفاء الطبيعة، ويتعانق فيه الأمل والحلم بالواقع، وحاضر المحبين المفعم بالآمال بمنى المستقبل الموعود، وكأن حلمها المشترك هو حلم «بردى» في جريانه يحمل الأمل للتربة العطشى..

ولا تقل مقطوعته القصيرة بعنوان (حبي وبلادي) جمالا عن قصيدته الطويلة، وفي مطلعها يقول مخاطبا محبوبته:

سألتني من يا ترى بضوادي

غير حبي لها؟ فقلت: بلادي

وهو مدخل لطيف للحديث عن وحدة الأمة:

سقط الوهم والغرور تلاشي

واحتوى الذعر دولة الأحقاد

والخلافات بين قومي استحالت

وحدة.. والحدود محض رماد

والتقى مغرب العروبة في السا

ح بجند الإباء من بغداد

هذه أمتي وإن شئت فاسأل

إن أعداء أمتي أشهادي

ألف فاد لكل حبة رمل

كُرم المفتدي، وعزّ الضادي

وينهي هذه القصيدة بقوله الجميل:

أنا أفدي حبي بروحي وقلبي

وبحبي أفدي حماة بلادي

ويعتز في مقطوعته (يا شام) بـماضي بلاد الشام، حيث تبدو الحرب امتدادا لماضٍ يختزله الشاعر في خمسة عشر بيتا، مؤكدا قول البحري:

والشعر لمح تكفي إشارته

وليس بالهذر طوّلت خطبته

ونلمح في مقطوعته (يا بردى) و (شام تشرين)

القصيرتين، كثيفا وتركيزا للمشاعر والمضامين

يفني عن المطولات، يقول في (يا بردى):

على ضفافك هام القلب وابتردا

لأنت كلّ المنى يا حلوى بردى

في غوطتك لقومي ألف ملحمة

تقول كنا، ونبقى أمة الشهدا

صحا الإباء بنا لما هتفت وما

أحلاه صوتك قد زدنا به رشدا

فاسلم لأرواح قومي ربيها أبدا

فنحن بالحب، نحن الصانعون غدا

ففي الأبيات تدفق وعفوية وطواعية في النظم

واقتراب من اللغة المحكية (يا حلوى بردى)،

وتتنظمها وحدة شعورية ومضمونية تماثلها مقطوعته

عن (شام تشرين) وقد جاء فيها:



إلى شراك تهادى والتقى العربُ

يا من هواك هو التاريخ والنسبُ

جاؤوك يا شام والآمال تسبقهم

وأنت أم لهم يا شام، أنت أب

حسب الأحبة أن الشام تجمعهم

وأن حبك في توحيدهم سببُ

* * *

وإذا انتقلنا إلى المطولات، وقد قيلت في مناسبات اجتماعية هادفة، نلمح أن الشاعر تحت تأثير أهداف المناسبة يفرق في تفصيلات هي أبعد ما تكون عن آفاق الشعر وعالمه المجنح، ففي قصيدة يشكو فيها جفاف «بردى» ويردّه إلى العبث بمجره وغياب إيمان الناس بالخالق الذي أبدعه، ويدعوهم إلى التوبة والتقوى، والحفاظ عليه، يفصل الشاعر في استعراض واقع النهر المتدفق، وانقطاع مجراه حالياً، وقد كان ملجأ للعطاش، ومنتزها لأهل دمشق، ومنهلاً للوراد، ورافداً لدور العبادة وأماكن الاستحمام، ومورداً

للطير والحيوان، وخريره للسمع تغريدات فرح، ومصدر سقاية لأشجار الفوطة. ثم يصور حال بردى فيرى أنه اليوم أجدر بالبكاء، بسبب التضريط في هدر مائه، وهو كفر وجحود، فيأ ويح شعب ضيع عنوانه! كما يقول.

لا شك أن القصيدة تكاد تكون أقرب إلى مقالة صادرة عن لجنة حماية مدينة دمشق بتفاصيلها، ومع أن الشاعر بسبب تمكنه الشعري ألبسها ثوب اللغة الشعرية، ونجح في التأثير بجمهوره، وحقق الهدف الاجتماعي من نظمها، إلا أنها لم تتحرر من عالم النثر ولغته الوظيفية، وقس على ذلك قصيدته المطولة الميمية بعنوان (شام الأحبة) فقد ورد فيها ما كرره في مقطوعات سابقة عن ماضي دمشق وتاريخها النضالي، ومنحها بعداً دينياً، فهي كنانة الله، وقد باركها الله تعالى في لوحه المحفوظ، وخلا بعضها من ذكر المناسبة التي قيلت فيها، فكانت تعبيراً غير موجه أو مقيد بمقتضى من الأحوال، وإنما أثارتها أحاسيس الشاعر من خلال بعض زياراته للفوطة، أو تأثره بالأحداث الوطنية البارزة التي وقعت في تلك المرحلة، وبدت المقطوعات التي تقيدها مناسبة اجتماعية أقل أبياتاً، لكنها تحفل بالمشاعر الذاتية الدافقة في الوفاء لمدينة دمشق وأهلها، والتغزل بجمالها، بل إن بعضها نظمها الشاعر ارتجالاً وهو يتملى جمال الفوطة وسحرها قبل أن يحسم أمره في الإقامة بدمشق، فكانت الأبيات على وجازتها أقل احتفاء بتفصيل المعاني، وأطوع في التعبير عن صدق مشاعره من بقية المطولات التي اضطر الشاعر فيها أن يراعي الجمهور، وينطلق من هدف إرضائه وتثبيت موهبته الشعرية بالإطالة والتفصيل حتى الإطناب، يقول أمام مشهد الفوطة الساحر، تحت عنوان (بين الفوطتين):





ما عدت أذكر صبوتي وهيامي

ما دمتُ أحيًا بين أهل الشام

خلفتُ ألامي اليتامى كلها

وأتيته في موكب الأحلام

ونسيت أُمسي حين هب نسيمي

وبدأت حين رأيته أيامي

سبحان من أجرى هواها في دمي

سحرًا.. فسالت رقة أنفامي

بالله يا بردي ترفق واروني

وأفك صبايا الحب والإلهام

لو كان لي في الدهر ما أختاره

لجعلتُ بين الغوطتين مقامي

فالأبيات تكاد تخلو من الصور البيانية المتكلفة،

يحكمها الوضوح والصدق واللغة المأنوسة الخالية

من التراكيب المصطنعة، وتبدو في صدقها وصفائها

مثل غوطة دمشق في ريعان تألقها بالربيع، وقد سبق

للقناد أن لاحظوا تميز هذا اللون من الشعر النابع

من القلب الذي يخلو من كل تصنع، وأعجبوا بقول

الشاعر القديم وهو يجسد لوعة نفسه لفراق الأحبة:

غداة أخط الخط بالترب مولعا

بكفي والغربان حولي وقّع

فواقعية المشهد وبساطته لدى الشاعر «مصطفى

عكرمة» أمام سحر الغوطة وصدق التعبير تحاكي

واقعية شعر ذلك الشاعر القديم.

فإذا انتقلنا إلى المقطوعة الثانية في المجموعة

وعنوانها (فوضى الجمال) نظمها الشاعر ارتجالاً

أمام مشهد الغوطة في فصل الربيع، نلمس تحولا

ملحوظا في شعره لا تكائه على الصنعة من طباق

ومقابلة:

فوضى الجمال بأرض الشام ترتيب

هذا الجمال بيمنى الله مكتوب

منمنم من بديع الصنع ليس به

إلا المفاتن أنى سرت والطيب

تروى الأعاجيب إذ تروى لغوطتها

وعن سواها فما تروى الأعاجيب

فالشاعر يعمد إلى الصنعة في أبياته، فيطابق بين

الفوضى والترتيب، ويستعير صورة الغوطة المكتوبة

بيمنى الله، وهي صورة محلقة مفعمة بالخيال،

ويجانس بين الرّي والرواية في البيت الثالث.

فتجد في تلك الصنعة الفنية لديه تطويرا لتجربته

الشعرية، وطموحا لتسخير اللغة لتكون حاملا قنيا

للتعبير ينأى به عن المباشرة.

ونلاحظ أن الشاعر في قصيدة عنوانها (يا درة

النجوم) يذهب بعيدا وراء الخيال، فيجعل دمشق

درة النجوم، وشريكة للشمس في تخومها، فقد جاء

إلى دمشق ليستريح من عناء الضياع، ودمشق ملجأ

كل عاثر منكود، وأديمها يكحل عيون المجهد، ويداوي

نسميها العاني، وأهلها قادة الفتح وأركان الزمان،

وحماة النهج القويم، وبناء المجد، وحماة العروبة

والإسلام:

أهلوك أركان الزمان وقادة الفتح العظيم

درجوا على النهج القويم فأسعدوا النهج القويم

ملكوا فكان الحب والإيثار والخلق القويم

والشاعر يتدفق بطواعية، فلا تعقيد في المعاني، ولا

نبؤ في قوافيه لأنه صادق في مشاعره تجاه أهل دمشق

وماضيه المجيد.

ومن طبيعة اللغة الشعرية أن تنأى عن الواقع،

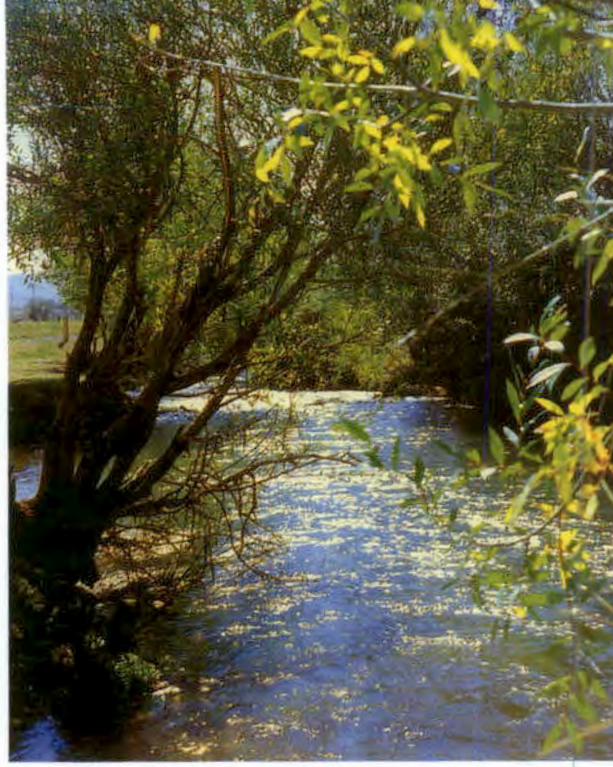
فترتفع به إلى مستوى من الحلم والخيال، فيغدو

النص معادلا قنيا للواقع يفوقه جمالا، وامتلاك اللغة

الشعرية الخاصة ومكوناتها الجمالية يتم عبر التجربة

الشعرية بالتدرج إلى أن تبلغ حدا يستنفذ فيه الشاعر

حرفيته في التعامل مع اللغة، فإذا كان شاعرا مطبوعا



ويختار كلمات القوافي بعسر، إضافة إلى تشعب المشاعر، واستقلال البيت أحيانا عن الوحدة الكلية الشعرية والمضمونية للقصيدة.

لقد مرت الأمة العربية والإسلامية بظروف قاسية، واستهدفها قرونا أعداء شرسون، مسلحون بقوى ومطامع كادت تقضي على إرادة الصمود في كيائها لولا ثباتها واعتصامها بدينها وتراثها ولغتها التي هي لغة القرآن الكريم الذي صان لسانها من الذويان، فلا يصح أن يقع اللوم عليها، وألا يمنحها الشعراء بعض الثقة والأمل لتسترد مكانتها بين الأمم. فالشاعر «مصطفى عكرمة» حين يركز على الثوابت في قيم هذه الأمة من أعراف ونبل إنساني عرفته حضارة الإسلام عبر ازدهارها، ويطالب باسترداد هذه القيم وتسليح الجيل بها، ينفذ إلى ممكن الداء، ويجد فرصة سانحة لبيت في أجيالها الأمل والثقة بالنفس، فاللوم والعتاب يجب أن يوجهها لظلام هذا العالم الذين تنكروا للقيم الروحية وغلبوا مصالحهم الأنانية على رعاية هذا الكوكب الذي يقودونه نحو الهاوية والانتحار، ويقودون استقواءهم إلى الاحتراق بنار أوقدوها.

جميل أن يدافع الشاعر «مصطفى عكرمة» عن هذه الثوابت التي يصر على التزامه بها وحرصه على بعثها، فقد ظل في معظم شعره كما عودنا متساميا يحلق في أفق الروح والقيم العليا التي يرى أنها يجب أن تسود عالمنا المجهد، وتتقذه مما يتهدهد وينذر بفنائه.

الهوامش:

- (١) ديوان عليكم بالشام، مصطفى عكرمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، مطبعة دار عكرمة، دمشق.
- (٢) نص الحديث: «عليكم بالشام أرض المحشر والمنشر»، كنز العمال، ج ٢٥٠١٣/٢، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٧٨/١، وتاريخ دمشق ٧٥/١، الديوان ص ٩.

طبع القريحة كشاعرنا «عكرمة» يميل كلما ارتقى في التجربة الشعرية إلى إطالة النفس في قصائده، وتطبيع اللغة فتغدو كالعجينة بين يديه يشكلها كما يشاء، لكن من طبيعة التفصيل والتفريع في الشعر أنهما يقربانه من النثر، وبهذا يخسر الشاعر الوحدة الكلية لشاعره حين تملي عليه المناسبات الشعرية أن يفصل ويطلق، وقد تفقد القصيدة وحدتها الشعرية الجامعة، وإن كانت تفتني بمضامين فرعية تقود اللغة إلى طابعها الوظيفي، والمباشرات الدلالية.

إضافة إلى ذلك ما يحيط بالشاعر في المناسبات من قلق في مواجهة جمهور يخاطبه، ويطمح أن ينال منه التقدير، فيطيل متوسعا بالمعاني وجزئياتها، ويوجه شعره لأغراض ودواع وطنية واجتماعية ودينية تكاد تكون أبعادها متماثلة لدى الشعراء الملتزمين. وشاعرنا «عكرمة» أحدهم. وهو ما ينكره المحدثون على الشعر التقليدي، فهم يرونه في رسالته القومية والاجتماعية يتجاوز أهداف الشعر في التعبير عن تجربة الشاعر الذاتية مجرداً من كل غرض إضافي. والشاعر «عكرمة» يجهد في التعبير عن دقائق المعاني، ويلزمه أن يقدم ويؤخر في التركيب اللغوي،